أحقا تحتاج «الأنا» «للآخر»؟

رغم ان الإنسان يمكن وصفه بأنه سيد الأرض بغير منازع إذ نجح ان يوظف إمكانياتها لخدمته معتمدا على تقدمه العلمى الذى يحمله متخطيا كل الطموحات من خلال الاختراعات والاكتشافات التى لا تحدها الحدود، الا ان طفل الإنسان رغم هذا يولد ضعيفا عاجزا لا يستطيع البقاء يوما واحدا دون الاعتماد على الآخر.

يبدأ الإنسان رحلته بحثا عن الوعى طفلا متفوق الذكاء فى أغلب الحالات، الا انه لا يستطيع ان يرى نفسه أو يتعرف عليها إلا من خلال مشاهدته للآخر، فيراه كيف يلهو ويقفز ويجرى هذا الآخر، فيتعلم كيف يحاكيه، ويبدأ فى التعرف على نفسه من خلال مقارنة نفسه بالآخر، فيقلد ما يحبه من فعل الآخر وينأى بنفسه عن محاكاته فيما لا يحبه من تصرفات.

وعندما يصل الإنسان لمرحلة ملموسة من اكتشاف الذات ووضع قدراته وإمكانياته موضع التطبيق العملى فإنه يسعى لامتهان مهنة تتمشى مع ما اكتشفه فى ذاته من قدرات، وفى هذه الحالة يكون الآخر هو معلمه للمهنة التى ينشدها والذى يفوقه فى أغلب الأحوال علما بأسرار هذه المهنة بل ويكون الآخر فى هذه الحالة هو المستهلك أيضا.

ومع مسيرة الحياة واعتلاء الأنا درجات أعلى من السلم المهنى صعودا تزداد حاجتها إلى الآخر فى كل مرحلة ليقيمها ويعطيها درجات قابلة للقياس لنجاحها فتعرف الأنا بهذا ترتيب موقعها من الآخرين تفوقا وتميزا أو عكس ذلك، كما ان الأنا لا تستطيع ان تشهد لنفسها بالتفوق وإنما تحتاج للآخر الذى يملك شرعية ومصداقية منح الشهادات الدراسية والعلمية التى يمنحها وكذا الجوائز والأوسمة التى يعترف بها الآخرين دون ثمة جدل أو تشكيك فيها.

وتقف «الأنا» عاجزة مسلوبة الحيلة فى أكثر الأمور التى تخصها فى غيبة الآخر، خصوصا فى مجال طب العيون والأسنان والأنف والأذن والحنجرة والجراحات وأمور الولادة.

أما وقد أصبحت «الأنا» صاحبة مهنة ولها حرفة ذات منتج أو خدمة تقدمها على اختلاف المسميات، إلا انه من عجب ان «الأنا» لا تستطيع ان تحيا مستهلكة لانتاجها فقط. فلا يستطيع زارع القمح ان يحيا على القمح فقط، ولا زارع البطيخ ان يحيا على البطيخ مستهلكا له، ولا ناقل البضائع ان ينقل بضائعه فقط، ولا مؤلف الكتاب ان يكون القارىء الأوحد لكتابه.. وفى هذا فإن انتاج الأنا مقصود به التوجه به للآخر الذى يقيمه ويستهلكه بعد شراء مبادلا بذلك مع الأنا منفعة بأخرى.

بقلم : د. نادر رياض

www.naderriad.com

اما فى مجال التفوق والابداع فإن الأنا لو بدأت مشوارها من الصفر فى كل مرة فلن يستطيع أى إنسان بجهده مهما طال عمره ان يصل إلى نجاح يمكن رؤيته أو قياسه.

وواقع الحال ان على الأنا ان تطلع على ابداعات الآخر وتتابع بالتمحيص والتقييم كل اكتشاف أو اختراع يقوم به الآخر لتدرس قصة النجاح تلك والتى تتحول بعد هذا إلى دافع للانا لتضيف اليها ميلا أو أميالا على طريق التطور والابداع فتنتقل الأنا بالبشرية من قمة إلى قمة أعلى محرزة التفوق المنشود مستلهمة الأفكار والرغبة فى التفوق من الآخر لتسوقها له اخذا وعطاء فى كل دورة.

ودراسة تجارب الآخر من الفشل لا تقل أهمية عن دراسة تجارب النجاح لما فيها من محاولات سعى إليها الآخر بجد واجتهاد، ولكن لم يصادفه التوفيق فلم يحرز النجاح الذى كان ينشده فتتحول قصة الفشل هذه أمام الأنا دافعا لتكرار التجربة مع استخدام مسار آخر يتفادى فيه الأنا مقومات الفشل فى تجارب الآخر السابقة.

وكما نرى فان الآخر هو الأكثر أهمية ونفعا للأنا من الأنا ذاتها إذ بدون الآخر لا تتوافر «للأنا» مقومات بقائها وتقدمها وازدهارها، بل وفى كثير من الأحيان تسلم الأنا نفسها للآخر باختيارها مطمئنة إلى انها فى أيد أمينة كما هو الحال فى حالات العلاج والجراحة والسفر بالطائرات والتقاضى وركوب البحر والدفاع عن الوطن، وحتى فى رحلتها لمثواها الأخير.

أما فى المشهد الأخير من حياة الإنسان فإن الأنا تفارق الحياة الحافلة بطموحاتها وسعيها الدءوب مطمئنة إلى انها ستتلقى الخدمة الأخيرة من الاخر بكل تقدير وتكريم فى رحلتها إلى مثواها الأخير، وهى خدمة يتبادلها الأنا مع الآخر عطاء متكررا ليأخذها مرة واحدة من الآخر فى نهاية الحياة.

حقا فان الأنا لا تستطيع ان تستغنى عن الآخر فى رحلتها لتحقيق الذات والوصول بها إلى مرحلة التميز والابداع طوال مراحل حياتها، بل ان نجاح الأنا يعتمد على الآخر فى الجانب الأكبر من مكونه الفعلى.

أحقاً تحتاج "الأنا" "للآخر"؟

رغم أن الإنسان يمكن وصفه بأنه سيد الأرض بغير منازع إذ نجح أن يوظف إمكانياتها لخدمته معتمداً على تقدمه العلمى الذى يحمله متخطياً كل الطموحات من خلال الاختراعات والاكتشافات التى لا تحدها الحدود، إلا أن طفل الإنسان رغم هذا يولد ضعيفاً عاجزاً لا يستطيع البقاء يوماً واحداً دون الاعتماد على الآخر ليطعمه ويعتنى به، وهو فى هذا يكون أضعف من طفل السمك وطفل الحشرات وطفل الهوام الذى يولد قادراً على الاعتماد على نفسه دون ثمة حاجة للآخر.. فيكون هذا أول درس للإنسان ليتعلم أنه رغم قدرته لا يملك قدرة تملكها كائنات أقل شأناً منه وأن رحلته على الأرض إلى فناء معجل فى غيبة الآخر.

يبدأ الإنسان رحلته بحثاً عن الوعى طفلاً متفوق الذكاء فى اغلب الحالات، إلا انه لا يستطيع أن يرى نفسه أو يتعرف عليها إلا من خلال مشاهدته للآخر، فيراه كيف يلهو ويقفز ويجرى هذا الآخر، فيتعلم كيف يحاكيه، ويبدأ فى التعرف على نفسه من خلال مقارنة نفسه بالآخر، فيقلد ما يحبه من فعل الآخر وينأى بنفسه عن محاكاته فيما لا يحبه من تصرفات.

وعندما يصل الإنسان لمرحلة ملموسة من اكتشاف الذات ووضع قدراته وإمكانياته موضع التطبيق العملى فانه يسعى لامتهان مهنة تتمشى مع ما اكتشفه فى ذاته من قدرات، وفى هذه الحالة يكون الآخر هو معلمه للمهنة التى ينشدها والذى يفوقه فى أغلب الأحوال علماً بأسرار هذه المهنة بل ويكون الآخر فى هذه الحالة هو المستهلك أيضاً.

والأمر لا يحتاج شرحا من أنه بدون الآخر لا تستطيع الأنا أن تتفوق فى أى حرفة أو مهنة بجهدها الذاتى وإنما عليها أن تبحث عن الآخر الذى يملك مفاتيح التفوق المهنى الذى تنشده فتتبادل معه المنافع.

ومع مسيرة الحياة واعتلاء الأنا درجات أعلى من السلم المهنى صعوداً تزداد حاجتها إلى الآخر فى كل مرحلة ليقيمها ويعطيها درجات قابلة للقياس لنجاحها فتعرف الأنا بهذا ترتيب موقعها من الآخرين تفوقاً وتميزاً أو عكس ذلك، كما أن الأنا لا تستطيع أن تشهد لنفسها بالتفوق وإنما تحتاج للآخر الذى يملك شرعية ومصداقية منح الشهادات الدراسية والعلمية التى يمنحها وكذا الجوائز والأوسمة التى يعترف بها الآخرون دون ثمة جدل أو تشكيك فيها .

وتقف " الأنا " عاجزة مسلوبة الحيلة فى أكثر الأمور التى تخصها فى غيبة الآخر، خصوصاً فى مجال طب العيون والأسنان والأنف والأذن والحنجرة والجراحات وأمور الولادة. أما وقد أصبحت " الأنا " صاحبة مهنة ولها حرفة ذات منتج أو خدمة تقدمها على اختلاف المسميات، إلا أنه من عجب أن " الأنا" لا تستطيع أن تحيا مستهلكة لإنتاجها فقط . فلا يستطيع زارع القمح أن يحيا على القمح فقط، ولا زارع البطيخ أن يحيا على البطيخ مستهلكاً له، ولا ناقل البضائع أن ينقل بضائعه فقط، ولا مؤلف الكتاب أن يكون القارئ الأوحد لكتابه.. وفى هذا فان إنتاج الأنا مقصود به التوجه به للآخر الذى يقيمه ويستهلكه بعد شرائه مبادلاً بذلك مع الأنا منفعة بأخرى.

د.م. نادر رياض

لعلنا جميعاً كل فى نطاق الأنا الخاصة به يتعامل طوال حياته مع الآخر من واقع هذه الحقيقة الثابتة، فيقيم محاور الود والترحاب للآخر

أما فى مجال التفوق والإبداع فان الأنا لو بدأت مشوارها من الصفر فى كل مرة فلن يستطيع أى إنسان بجهده مهما طال عمره أن يصل إلى نجاح يمكن رؤيته أو قياسه.

وواقع الحال أن على الأنا أن تطلع على إبداعات الآخر وتتابع بالتمحيص والتقييم كل اكتشاف أو اختراع يقوم به الآخر لتدرس قصة النجاح تلك والتى تتحول بعد هذا إلى دافع للأنا لتضيف إليها ميلا أو أميال على طريق التطور والإبداع فتنتقل الأنا بالبشرية من قمة إلى قمة أعلى محرزة التفوق المنشود مستلهمة الأفكار والرغبة فى التفوق من الآخر لتسوقها له أخذاً وعطاء فى كل دورة.

ودراسة تجارب الآخر من الفشل لا تقل أهمية عن دراسة تجارب النجاح لما فيها من محاولات سعى إليها الآخر بجد واجتهاد، ولكن لم يصادفه التوفيق فلم يحرز النجاح الذى كان ينشده فتتحول قصة الفشل هذه أمام الأنا دافعاً لتكرار التجربة مع استخدام مسار آخر يتفادى فيه الأنا مقومات الفشل فى تجارب الآخر السابقة.

وكما نرى فإن الآخر هو الأكثر أهمية ونفعاً للأنا من الأنا ذاتها إذ بدون الآخر لا تتوافر " للأنا " مقومات بقائها وتقدمها وازدهارها،بل وفى كثير من الأحيان تسلم الأنا نفسها للآخر باختيارها مطمئنة إلى أنها فى أيد أمينة كما هو الحال فى حالات العلاج والجراحة والسفر بالطائرات والتقاضى وركوب البحر والدفاع عن الوطن، وحتى فى رحلتها لمثواها الأخير.

ولعلنا جميعاً كل فى نطاق الأنا الخاصة به يتعامل طوال حياته مع الآخر من واقع هذه الحقيقة الثابتة، فيقيم محاور الود والترحاب للآخر، معترفاً بفضله كمكون رئيسى فى قدر النجاح الذى على كل منا أن يحققه ليس من واقع القسمة والنصيب، وإنما بفعل النسبة والنصاب فى تبادل القيمة المضافة مع الآخر أخذاً وعطاء.

أما فى المشهد الأخير من حياة الإنسان فإن الأنا تفارق الحياة الحافلة بطموحاتها وسعيها الدءوب مطمئنة إلى أنها ستتلقى الخدمة الأخيرة من الآخر بكل تقدير وتكريم فى رحلتها إلى مثواها الأخير، وهى خدمة يتبادلها الأنا مع الآخر عطاء متكررا ليأخذها مرة واحدة من الآخر فى نهاية الحياة.

حقاً فإن الأنا لا تستطيع أن تستغنى عن الآخر فى رحلتها لتحقيق الذات والوصول بها إلى مرحلة التميز والإبداع طوال مراحل حياتها، بل إن نجاح الأنا يعتمد على الآخر فى الجانب الأكبر من مكونه الفعلى.

جريدة الوطنى اليوم (صفحة 16) 2010/03/23 الوطنى اليوم